في سورة الهمزة... مقاربة لغوية تكاملية

أحمد فليح*

ملخص

الحمد لله، ولا قوة إلا بالله، والصلاة والسلام على رسول الله، ومن تبعه ووالاه.

فينهض هذا البحث لتشخيص جملة من الأدوات الفنية والتقنيات الأسلوبية، التي استرفدها النص القرآني في سورة الهمزة، متمثلة في الجرس الإيقاعي الذي يشكل منظومة أصوات متجاورة منسجمة على وفق نسق معلوم، لافت للنظر، وجاذب للسامع يشده شداً ويأخذ سمعه، فيستقطبه مذعناً لسماعه.

درس البحث آلية تناسق مخارج الأصوات وصفاتها وتأثيره في القيم الموضوعية، والطروحات الدلالية في السورة الكريمة.

وعقيب ذلك التفت البحث إلى البعد الصرفي، وما فيه من ظواهر مميزة، ثم توفر على الأبعاد التنظيمية في التراكيب النحوية، فلاحظ أن السورة تنضح بأسلوب بنائي فريد، فكل كلمة لزت إلى أختها في قرن متماسك يشكل نسقاً نهائياً فريداً، ثم التفت البحث إلى المسائل البلاغية الفاقعة التي تضفي سمتاً أسلوبياً ممتعاً. وانتهى البحث بخلاصة أوجزت جل معطيات البحث ونتائجه.

منهجيـــة البحـــث

وظف البحث منهجاً في الدرس ائتلافياً يقوم على تحليل النصوص وتفكيكها إلى عناصرها ومكوناتها الرئيسة، في المستويات اللغوية الثلاثة: المستوى الصوتي، والمستوى النحوي النظمي، والمستوى البلاغي الأسلوبي، للكشف عن مواطن الجمال الأخاذ فيها، فهو منهج ائتلافي تكاملي، يعنى بالظواهر في مستوياتها للكشف عن القيم الفنية التي يوظفها النص، ليقف القارئ عليها كيما يزداد استمتاعاً وتأثراً بها فيصدع لرؤى قيمها الموضوعية، فالقرآن الكريم ينطوي على أسلوب لغوي ساحر ثر، في المستوى الصوتي أو الصرفي أو التركيبي النحوي، أو الأسلوب البلاغي أو الدلالي، فضلاً عن القيم التعبيرية المعجزة وكلها قيم فنية تتضام مع أسرار أخرى ما تزال مواضع مباحثة أنظار، تتضافر كي تشكل أسلوباً نصياً عجيباً هو أسلوب القرآن الكريم بإعجازه وفصاحته ولذته وجماله.

مهـــاد استفتاحي

توفر القدماء والمحدثون على درس سور القرآن الكريم بمناهج شتى، واجتهدوا في الكشف عن مواطن الإعجاز والجمال فيها، ولا يزال القرآن واحة تفكير، وملاذ تأمل لكل مجتهد، وكل يرجع بصيد لؤلؤ ثمين كلما غاص في ذلك البحر القرآني العميق، وهذا مؤشر على أن الكلمة المنتهية التي لا معقب عليها في إعجاز القرآن الكريم لما تحن، وسيظل البحث في القرآن وأسراره يتواتر وينثال، وهذا في ذاته معجزة، من قبل أن بلاغة الخطاب في القرآن تحمل الإقناع لا الإملاء، وتتسلح بالحجاج المنطقي الهادئ الممتع الجذاب، بخلق المتوازنات، وتبديد التناقض والوهم، ببلاغة متجذرة في الفصاحة وبراعة الإقناع، وعمق الرؤية.

وعلى الرغم من كثرة ما قيل عن القرآن الكريم من تفاسير واجتهادات، تتلمس مواضع الإعجاز، فلا يزال باب الدرس والتنقيب في أسراره مفتوحاً لمن يلج بحسن نية، باسترفاد معطيات العلوم المحدثة، أو بانتجاع طرائق جديدة، أو باستنبات أساليب تحليلية مسعفة تميط اللثام عن مواطن الجمال في الخطاب القرآني. قال العلامة بدر الدين الزركشي، صاحب البرهان: " العلوم ثلاثة: علم نضج وما احترق، وهو علم النحو والأصول، وعلم نضج ولا احترق

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة جرش، جرش، الأردن.
تاريخ استلام البحث ٢٠٠١/٤/٣، وتاريخ قبوله ٢٠٠١/٧/١٢.

وهو علم البيان والتفسير، وعلم نضج واحترق، وهو علم الفقه والحديث"[١].

ونحن نصدع بهذه الأطروحة التي أذن بها العالم الجليل، ونهطع لها، وأجدني مدفوعاً بحماسة مستلهبة العون من الله، للغوص في هذا العباب الزاخر لعلنا نجلي بعض المواضع، أو نكشف عن جمال بعض المواطن كيما تظل هذه اللؤلؤة المعجزة مؤتلقة شفيفة.

لقد توفر عدد من القدماء والمحدثين على الدرس القرآني إما دراسة صوتية أو بلاغية أو نحوية وإعرابية، بمنهج منفصل، يأخذ أمشاجاً من كل مستوى، ونحن تخولنا النص القرآني تخولاً صوتياً صرفياً نحوياً بلاغياً تكاملياً، لم نتقيل أحداً من الدارسين بيد أننا تهدينا وتقوينا ببعض التفاسير المتقادمة التي تعاورت السورة الكريمة، وشكلت صوى على الطريق. ولقد ظلت تفاعلات هذه السورة تمور في وجداننا حولاً كريتاً نديم التنقير، ونطول التحديق، ونمده للوقوف من كثب على طبيعة الحركة اللغوية، والتموجات الصوتية التي تؤلف نسغ بلاغتها فرأينا أن التركيب الصوتي والصرفي الظاهر في معطيات السورة يشكل علامات بارزة في إيقاعها، ومنظومتها الصوتية، وجرسها المميز، ولرأينا أن كثيراً من مواطن الجمال يرتد لهذا البناء الصوتي الفريد فيها، فاستظهر البحث أميزها وأفقعها.

ومن يحدق بوعي في سور القرآن الكريم، ولا سيما القصار المكيات فلا بد أن يتراءى له في الخاطر الأول أن السورة الواحدة تنتظمها جملة من الأنساق الصوتية تشكل مؤشراً ملخصاً لمحتوى السورة وأطروحتها الرئيسة، فمثلاً قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق﴾... إلى آخر السورة، تلحظ أن السورة كلها متسربلة بصوت القاف، الذي يشكل البؤرة الرئيسة لحركتها الصوتية الذي ينسجم بقوته وصعوبته النطقية ومسألة الخلق المعجزة، وما تنطوي عليه من صعوبة.

بيد أن سورة (الناس) بنيت منظومتها الصوتية على صوت السين المهموس، كيما يجسد همسات الوسوسة بين ظهراني الإنس والجن، وقد بنيت سورة الصمد بناءً صوتياً قوياً بمضمونها الفكري، مما جعل المرء، يهجس بعلاقة متينة قوامها التلاحم الملموح بين أصوات الآية أو السورة الواحدة التي تشكل منظومة لها علاقة متينة بالقيم التعبيرية والمضامين الفكرية التي تؤذن بها السورة، فيفضي ذلك إلى لحمة ممتعة وتناسق ظاهر يشد السامع ويغريه للالتفات إلى تلك الأصوات المتناغمة، فيتلقى الرسالة التي تنطوي عليها السورة، فالأفكار والخطاب يسيغها النص القرآني، ويسلكه إلى المتلقي على طبق من جرس كلامي، وإيقاع صوتي متآلف ومتجانس معه، فيكون اكثر تأثيراً وإقناعاً.

وسورة الهمزة تعالج نقيصة اجتماعية تعد من أكثر الأدواء الفاتكة المعيبة في سلوكنا، الناخرة في بنيان الفرد والمجتمع، وهي سلوك الهمز واللمز في الناس وهي تنطوي على التقول على الناس والافتئات عليهم رجماً بالغيب، أو إرضاء لنزوة، والتخوض في هناتهم والتفحيش والتشنيع على الناس بأوهى شبهة ومن غير تثبت، وتنقص البشر والافتئات عليهم، ونبش صفاتهم إفكاً وبهتاناً، مما يفضي إلى التقاطع والتنافر في منظومة المجتمع، وسيادة الكراهية والحقد في العلائق الاجتماعية فينهار البناء الاجتماعي الفاضل الذي أسهم الإسلام في تشييده، وتلتفت السورة الكريمة، على وجازتها إلى معالجة نقيصة عقدية تتمظهر في تشاغل الناس بجمع المال بأية طريقة، وكسبه من أي وجه إن حلالاً وإن حراماً، فيشغل الإنسان عن رسالته التي خلق من أجلها وهي عبادة الله، وتدق أسافين الكره والحسد للتفاوت الطبقي والمالي بين الأغنياء الذين يمتلكهم الجشع والاستغلال البشع، فينحدر المجتمع إلى هاوية الحقد والتباغض والتحاسد. فالسورة الكريمة تسعى إلى التوازن بالحفاظ على حقوق الإنسان وصحته النفسية السليمة التي لا مطعن ولا مهمز ولا ملمز فيها، ولا غمط ولا استغلال ولا ابتزاز، وحقوق الجماعة بإيجاد شبكة علاقات متوازنة متواشجة متراحمة، وبناء مجتمع الحق والعدالة والفضيلة والمجتمع، باحتوائه على فردية متقبلة

متكيفة اجتماعياً متوازنة مع المجموعة، فبذلك تتحقق حقوق الفرد منسوقة بأمان في ظلال حقوق الجماعة التي ترعى الفرد نفسياً ومادياً وتحتضنه.

ومع أن السورة الكريمة عالجت واقعة خاصة هي حال الأخنس بن شريق[٢]، إلا أننا نستظهر المسألة في بعد أشمل وهو تجاوز خصوص السبب إلى عموم الحكم.

هذه النقائص الاجتماعية المتضمنة السخرية، أو الاستئثار بالمال، وإهدار الوقت والهدف في جمعه، هي قضايا مستهدفة من لدن العناية الإلهية، ومرغوب إقناع البشر بصحتها وأهميتها لهم لسيادة الحق والخير والعدالة، وإعمار الحياة، والفوز برضوان الخالق، هذه القيم العقدية، ما القيم الفنية، وما الأدوات والأساليب التعبيرية التي تحملتها طبقاً شهياً مقنعاً إلى الناس المتلقين؟ هذا ما سنعمد إلى توضيحه في التو، في المحاور الآتية:

١. المحور الأول: البعد الصوتي في السورة

والغرض الذي يترماه البحث هو تحليل المنظومة الصوتية للوقوف على باب التلاؤم بين الحرف في التأليف، وتأثيره في جمالية الأسلوب وفضاءات البناء النصي والارتباط بين ذلك والمضامين التي تنطوي عليها السورة، فقد يكون التأليف بين الحروف متنافراً كقول الشاعر:

وقبر حرب في مكان قفر

وليس قرب قبر حرب قبر

ذكروا أن هذا من أشعار الجن، لأنه لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يتتعتع، وإنما السبب في ذلك ما ذكرناه من تنافر الحروف[٣] "والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله، وذلك بين لمن تأمله... والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل في البعد الشديد أو القرب الشديد، وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد؛ لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال"[٤].

ومخارج الحروف مختلفة، فمنها ما هو من أقصى الحلق، ومنها ما هو من أدنى الفم، ومنها ما هو في الوسائط بين ذلك.

"والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، وذلك يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الإسماع، وتقبله في الطباع"[٥].

ولدى رصد الصورة الصوتية في السورة الكريمة ظهر أن عدة كلماتها تناهت إلى (٣٧) سبع وثلاثين كلمة، انطوت على (١٣٩) مئة وتسعة وثلاثين صوتاً، بلغت عدة الأصوات الصائتة، أي المدود الطويلة (١١) أحد عشر صوتاً، الألف أو الفتحة الطويلة (٧) مرات، والواو أو الضمة الطويلة (٢) مرتين، والياء أو الكسرة الطويلة تناهت إلى مرتين حسب.

وتوزعت الأصوات الصوامت في تكرارها في الثبت الآتي:

الهمزة: ٧ مرات، ب: ٢، ت: ١٠، منها (٨) مربوطة.

ث: لا شيء، ج: ١، ح: ٣، خ: ١، د: ١٢، ذ: ٢، ر: ٢، ز: ٢، س: ١، ش: لا شيء، ص: ١، ض: لا شيء، ط: ٤، ظ: لا شيء، ع:٥، غ: لا شيء، ف: ٣، ق: ١، ك: ٣، ل: ٢١ منها (٤) ال التعريف، م: ١٤، ن: ١٢ منها (٤) تنوين، هـ: ٧، و: ٣ منها (٢) للعطف، ي: ٥.

واللافت للنظر، في هذه الأصوات، أن أصوات المد بلغت شأوا متواضعاً: (١١) صوتاً حسب، من قبل أن الخطاب القرآني في هذا المقام هامس وجداني عقلاني يمس شريحة مستخفية ناشزة من المجتمع، وسلوكها مرفوض، أو ينبغي أن نظل صبراً غيارى على وضعهم لإصلاحه، فكان الخطاب مفعماً بالإسماح وحسن التلطف، وتندية التأتي، والإصلاح بالحجة وليس بالتشنيع وفضح المواقف فينفض الناس، بل ينبغي احتواء الناس واستيعابهم بالملاينة، والترغيب، وحسن البشارة، كيما يتقبل الناس المتلقون الخطاب بأريحية وإقناع، فجاء الخطاب هامساً

عاتباً ملاطفاً ممزوجاً بالوعد والوعيد، مراوحاً بين الترغيب والترهيب، إن في المنظومة الصوتية وإن في المضامين الفكرية المطروحة.

وأكثر الأصوات شيوعاً هو صوت اللام: ٢١ صوتاً وهو صوت صامت مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة، ومنفتح، ولعل في شيوعه تجسيداً للوسطية المستأنية، وضرورة الاحتواء العقلي المسامح للخاطئين، ومجافاة القسوة المفضية إلى قطع التواصل والنفور والجفوة ومزايلة المقاصد، وتفويت الرغائب المرسومة.

"واللام مخرجه من جانب اللسان، فهو لثوي، والأصل فيه الترقيق، وقد يفخم وذلك في لفظ الجلالة، أو إذا سبقه أحد الأصوات المطبقة مثل: الصلاة، والطلاق، والظلام، ويجوز تفخيمه إذا تلاه صوت من أصوات الفتحة" (٦).

وجاء صوت اللام في كل مواضعه مرققاً، ولعل ذلك ينم على مقاصد تعليمية توجيهية من لدن رب العباد، في أدب التعامل مع الخارجين على سنن الحق لاستقطابهم أبداً، وهو نموذج رفيع من أدب الخطاب الرباني المؤصل على الحجاج ومجافاة اللجاج واللدادة والحقد في التعامل البشري، ولعل ذلك ينهض في مراجعة العباد إلى سنن الحق وإيجاد مجتمع متحاب متلاحم نظيف من الأحقاد والأنانية.

ويرد بعده في الترتيب صوت الميم: ١٤ مرة، وهو صوت أنفي مجهور، ثم صوت الدال ١٢ مرة، ومخرجه من أسهل المخارج واغناها، وهو يفيد الشدة لجهارته، ثم صوت النون: ١٢ مرة والميم مثل النون مع شيء من الخلاف، وهي كثيرة التأثر بالأصوات التي ترد بعدها(٧).

ولعل في هذا مؤشراً على محتوى السورة من أن المواقف فيها من همز أو لمز أو جمع مال يشكل قضايا اجتماعية متناهية في الدقة والتعقيد، من قبل أنها تشبه أن تشكل شبكة علاقات متماسة أبداً، متشابكة مؤثرة ومتأثرة مثل هذه النونات.

أما الأصوات الحلقية التي تسبب إعناتاً واستكراهاً في مخارجها فهي متواضعة الحضور. ولعل وراءها دلالة قوية على تجنب العنف والاستكراه.

أما حركة الأصوات من جهة الوضوح فنقول: إن الراء واللام تمتلكان درجة عالية في الوضوح الصوتي، بيد أن الراء وردت مرتين، أما اللام فوردت (٢١) مـرة والميم: (١٤) مرة، وهي من الأصوات الواضحة في السمع والنون: (١٢) مرة، وهي أيضاً كذلك وهذا يعزز قولنا: إن السورة الكريمة في هذا الخطاب وظفت تقنية الأصوات الأكثر وضوحاً في السمع، وهي آلية مقتصدة من قبل أن الهمز واللمز، وجمع المال وعده مسلكان يتمان في الخفاء والظلام فدعت السورة إلى محاربتها ونبذها، ليس مباشرة فحسب، بل أيضاً بالتضافر الملموح بين المضمون والمحتوى والأصوات اللغوية التي تخدم تلك الطروحات بآلية مجلجلة لكيما تطال هذه الأطر السلوكية فتدينها وتزري بها، وتنعى على تصاريفها، فيستشعر المخاطب بأنه معني مباشرة، فيتخذ استجابة تنسجم والخطاب المذكور.

استهل الخطاب القرآني الأطروحة بالحركة اللغـوية: ﴿ويل﴾ وهي تشكل فضاءً صوتياً مفعماً بالحيوية النابضة: وأصوات متوسطة ومجهورة لثوية، الواو شفوي شديد مجهور مرقق، والياء مجهور غاري واللام لثوي جانبي مجهور، والتنوين نعتده نوناً، صوت أنفي مجهور لثوي. والانسجام ظاهر بين هذه الأصوات فالانتقال من الواو الشفوية إلى الياء الغارية إلى اللام اللثوية، إلى النون اللثوية يتأتى بأريحية وكياسة، من غير إعنات، ويؤديها المتكلم بسلاسة وعفوية، ومثله قوله تعالى: ﴿لكل﴾: الانتقال من اللثة إلى الطبق ثم إلى اللثة هين مريح، ومثله في أصوات ﴿همزة﴾، ما أيسر حركة النفس من الحنجرة إلى الشفتين إلى الأسنان اللثوية إلى الحنجرة بتباعد أروح عن المتكلم، وأخف على المتلقي، ومثلها: ﴿لمزة﴾ تطواف مريح بين مخارج الأصوات، يجسد سلوك الهامز اللامز في سهولة إطلاق الإشاعات، ولصق العيوب بالناس من غير روية أو تكلف أو حجة أو إثبات.

وقوله تعالى: ﴿جمع﴾: فالجيم غارية، والميم شفوية،

والعين حلقية، فالتباعد بين المخارج شديد، كيما تجسد هذه القفزات والنقلات بين المخارج، والتجسم المعنت في الحركة الصوتية، تجسد حالة الطماع وهو يزاول جمع المال وحشده من أي وجه، فالمكابدة الصوتية رجع المكابدة النفسية، وصدى الصراع الطامع في احتجان المال في كل مكان، فجامع المال الطماع والبخيل مأزوم مهموم يرتكس إلى معاناة في الجمع، والتثمير والإنماء، والضن به على الناس.

وأظهر ما يكون التعاقب بين الأصوات في إيقاعها والدلالة في تشكلها المضموني في قوله تعالى: ﴿ وعدّده ﴾، إذ حشدت منها ثلاثة أصوات هي الدال والعين، وهي رجيع مكابدة صوتية فالعين صوت حلقي، ممعن في العمق والغؤور، والمتكلم يكابد في نطقه والانتقال من العين سهل من قبل أن الدال أسناني لثوي، وهو انفجاري مجهور، فالانتقال من صوت إلى صوت هنا ميسور فالتركيب نفسه في (عدد) سهل وحسن[٨]. إلا أن المكابدة تلمح في نطق الصوت المفرد وحده، من قبل أن العين حلقية، والدال مضعفة ثلاث مرات، والصوت إذا ضعف أفاد المبالغة والتكثير، على نحو ما نلحظه في صرّ وصرصر، على ما نبه عليه الخليل[٩]. والمناسبة مملوحة بين الصوت والدلالة مثلما نبه إلى ذلك سيبويه[١٠] وسماه ابن جنّي: تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني[١١] ومرة سماه: باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني[١٢].

فالعين تجسد الحركة النفسية لدى جامع المال: إذ تظهر الصعوبة في عملية العد، والحرص على استخفاء المال لئلا ينفضح أمره، والدال تجسد كثرة العد بين الفينة والأخرى، ليقف على حجم التنامي والتزايد في حجم المال المكسوب بأوجه ملتوية والمحجوب عن إفادة الناس منه.

وأما قوله تعالى: ﴿أخلده﴾، فالهمزة حلقية، والخاء طبقي واللام لثوي والدال أسناني لثوي، فالشدة والتباعد بين الأصوات واضحة كي تبين أن المسافة بين صاحب المال المذكور والخلود مسافة متنائية تشق الإحاطة بها.

أما قوله تعالى: ﴿لينبذن﴾، من الفعل: نبذ لثوي ثم شفوي ثم أسناني، والنطق سهل بها، يشاكل سهولة الفعل المنوط بالباري، عزّ وجل، وهو قذف هذا المعني في النار بخفة ويسر، على طريقة نبذ النواة أو الحصاة في النار بسهولة وخفة.

أما قوله تعالى: ﴿الحطمة﴾، فهي تأتلف من منظومة صوتية مجلجلة معبرة، الحاء صوت حلقي مهموس، والطاء مطبق انفجاري مهموس أيضاً والميم شفوي متوسط، تدل في مجملها على الصخب والقوة، فهي تجسد الحطم والسحق.

وتتعزز القوة والصخب باستعمال صيغة (فُعلة) الدالة على المبالغة، وتتضام التاء لتعزز المبالغة، وتتقوى بهذا التكرار القاصد ليعطي إيقاعاً مرعباً يشكل صورة مهيبة: ﴿لينبذن في الحطمة، وما أدراك ما الحطمة﴾ فالجرس الإيقاعي الذي تجسده هذه الإضمامات الصوتية المتناغمة تجسد حركة نفسية داخلية متموجة تتضح بالحركة المشبعة بالدلالة الجهيرة القوية.

وفي قوله تعالى: ﴿موقدة﴾، أصوات توحي بحركة شبوب النار، وابتعاث جذوتها البطيء أولاً ثم احترارها بقوة القافية الموحية بها، التي تحكي حسيس النار في اشتداد أوارها، أما الدال فهي تجسد اندفاع النار المشبوبة المتلظية. فالأصوات مجسدة معبرة.

أما قوله تعالى ﴿تطلع﴾، من الفعل (طلع) التي تبدأ بالطاء المطبق الذي يزيد من قوته تضعيفه ليجسد سرعة السريان والإحراق، وفي حركة الأصوات تجسيد لآلية حركة النار في الإحراق فهي تبدأ من الطاء من اللثة والأسنان ثم تتعمق الحركة الصوتية إلى اللثة ثم ينحدر الصوت إلى العمق، فالعين هو أعمق أصوات الحلق فهي حركة تحكي حركة النار من الجلد ثم إلى العظام ثم إلى الأفئدة. فاللحمة متواشجة بين حركة الأصوات، وحركة الفعل لدى النار.

وتظل هذه المناسبة قوية شاخصة في كل كلمة ترد في هذه السورة، مناسبة قويّة بين الإيقاع الصوتي المتولد من الالتئام المتناغم بين الأصوات، إن في مخارجها، وإن في

صفاتها، لتشي بالمعنى وترشحه، فحينئذ تصبح العلاقة بين الأصوات والدلالة أو المضامين قوية، فيحس المتلقي بالاسترواح بالتمسك في الدلالات المتضمنة، ويصبح اكثر انفعالاً وتأثراً واستجابة بنص لغوي متوازن منسجم بين الأصوات والدلالات فتحدث الاستجابة السريعة، ويصير النص ذا إيقاع ملذ، وجرس ممتع، يزيد من جمالية النص، ويجعله لائطاً بالنفس، لصيقاً بالروح، وهذا ما نلمحه في هذه السورة الكريمة، بما فيها من نفس إيقاعي متناغم فريد، أحلها في منزلة بلاغية سامقة، فلا نملك ونحن نتلوها إلا أن نردد مع الوليد بن المغيرة، لما وصف جمال القرآن الكريم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، مثمر أعلاه، مغدق أسفله، يعلو ولا يعلى عليه[١٣].

ولعل سمة أخرى إيقاعية ملموحة في السورة، نلمسها في هذا التجاور والتجاذب بين بعض الأصوات، في توضعها على النحو هذا، الذي وجدناه، ويتراءى لنا من غير تهافت أو تحكم أو افتعال أو لي ذراع النصوص، ومن ينقر في السورة الكريمة يجدها تستجمع ألواناً من التجاور الصوتي الذي تتضافر فيه الأصوات المتماثلة، أو المتقاربة، فتؤدي في التحقيق إلى وتائر إيقاعية، وتموجات صوتية عجيبة، هي مناط هذا الجرس الذي تحسه الأذن إبان تلاوة هذه السورة، وهذه بعض ملامحها:

١. ويل ..... لكل. ويل ... لكل. منظومة اللامات.

٢. همزة ..... لمزة، همزة لمزة.

همزة ..... لمزة. منظومة الميم والزاي والهاء.

٣. الذي جمع مالاً. منظومة اللامات.

الذي جمع مالاً وعدّده. منظومة العين والدال.

٤. يحسب أن ماله أخلده. الهمزات والهاءات.

ماله..... أخلده. اللامات.

٥. كلاّ ..... لينبذنّ. اللامات والنونات.

٦. لينبذن في الحطمة. اللامات والياءات.

٧. في الحطمة وما أدراك ما الحطمة. تماثل الأصوات والمفردات.

٨. التي تطلع. التاءات واللامات.

٩. التي تطلع على. اللامات والعينات.

١٠. على الأفئدة. اللامات.

١١. إنها عليهم ..... مؤصدة. الميمات والهاءات.

١٢. الأفئدة ..... مؤصدة. الهمزات والتاءات.

١٣. في عمد ... ممددة. الميمات والدالات.

وهذا غيض من فيض، وقل من كثر، تمور بها السورة الكريمة من شبكة العلاقات الصوتية المتلاحمة، مما يحقق مقطوعة إيقاعية، ولوحة فنية صوتية تستروحها الأذن وتلذها فتلظ بها، ولا يني السامع يرددها بتؤدة وإعجاب فتضطره إلى تحفظها، وعقيب ذلك يحاول الولوج في عوالمها ودلالاتها وطروحاتها مأخوذاً مأسوراً متمثلاً.

٢. المحور الثاني: البعد الصرفي

ونقصد به البنى الصرفية، في أنفس الكلم، مخصوصة بتشكلاتها وتبدلاتها الصوتية، وما تنطوي عليه من أصوات تشكل فضاءات إيقاعية متناسقة، تفضي إلى بناء لغوي

منسجم متوازن، فلو أقمت صيغة مكان صيغة، أو قدمتها أو أخرتها لأخللت بالبناء، ولأهدرت النغم المتماوج المتداخل، فتجاور الأصوات في المكون اللغوي يشكل النظام الصوتي، ومن ثم يعطي إيقاعاً صوتياً مناطه وجوهره انسجام الأصوات المتجاورة، فالألفاظ أبنية صوتية مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر إلى دلالتها(١٤).

فقوله تعالى: ﴿ويل لكل﴾: انسجام في التنكير، وفي تجاور اللامات، يجسر بينهما صوت الكاف.

وقوله تعالى: ﴿همزة لمزة﴾: التجاور الإيقاعي فضلاً عن صيغتي المبالغة في وزان: (فعلة) وانضافت التاء كيما تجسد السلوك الشائن.

فأنت تحس جمال الإيقاع وتستشعره في تآلف الكلمات وتآخيها وتناسقها في الجمل، لحمت الكلمة بالكلمة، لا تبغي عنها انفكاكاً تآلفاً وانسجاماً(١٥).

ومن صيغ المبالغة قوله تعالى: ﴿عدّده﴾. فالتضعيف له دلالة مشخصة على المبالغة في الحرص والطمع، وإدامة تعداد المال تشاغلاً به عن عبادة الله، وإيثاراً لتناميه، يغذيه كل حين كيما يتنامى ليحقق له المنزلة الاجتماعية الموهومة، في الدنيا.

أما قوله تعالى: ﴿يحسب﴾: فهي تجسد الوهم المخادع، والأمل الحابط. ومن صيغ المبالغة قوله تعالى: ﴿في الحطمة﴾، بوزان (فعلة) التي تجسد الصورة المرعبة التي تكسر كبرياء المتجبرين المتمردين وتحطم نفوسهم الناشزة.

ويختزن قوله تعالى: ﴿تطّلع﴾: طاقة تعبيرية هائلة ففيها إبدال، وإدغام، يجسد شدة سريان النار في الجسد واختراقها أجزاءه، حتى تصل إلى الأحشاء.

وحشد النص القرآني جملة من الأدوات التي تتخول النص وتتعاوره، تفضي إلى الترابط والتماسك ومنها:

١. حروف الجر، ومنها: اللام، ومن قوله تعالى: ﴿لكل﴾ وتفيد اللام الاستحقاق، وهو استحقاق يجسد العدالة في الجزاء.
٢. حرف الجر في، من قوله تعالى: ﴿في الحطمة﴾ لتفيد الظرفية الحقيقية.
٣. ما: الاستفهامية في قوله تعالى: ﴿وما أدراك﴾، والاستفهام يفيد التعجب، ومثله: ﴿ما الحطمة﴾.
٤. على، حرف جر، من قوله تعالى: ﴿على الأفئدة﴾. ويفيد الاستعلاء، الذي يجسد الشمول والإحاطة. ومثلها:﴿ عليهم﴾.
٥. كلا: أداة الزجر والتوبيخ.
٦. اللام الواقعة في جواب القسم، في قوله تعالى: ﴿لينبذن﴾.
٧. نون التوكيد الثقيلة: ﴿لينبذن﴾.

٣. المحور الثالث: النظام النحوي

وسماه عبد القاهر الجرجاني النظم، وقال: ومعلوم أن النظم ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض(١٦). وقال: وكنا قد علمنا أن ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم(١٧).

ويقفنا البحث على جملة من المعاني النحوية، ولا سيما التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتأكيد، وذكر ابن جنّي أن هذه المعطيات تنم على شجاعة العربية(١٨). وأشار إليها آخرون من البحثة ونوهوا بها(١٩).

وهذه المعاني النحوية تعتد من آثار التوليد والتحويل، فالمعاني تترتب في النفس، وفي عقيب ذلك ترد الكلمات على حسب ترتيب المعاني المستكنة في النفس(٢٠) وهذه المظاهر التي أذن بها تشومسكي مشخصة في أنظارنا وأصولنا، التفت إليها علماؤنا، في التقديم، في قوله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾، إذ قدم المفعول به للتخصيص، ومثله قوله تعالى: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾، قدم خبر يكن على اسمها للعناية والاهتمام(٢١) وقد نلمح طروحات التوليد والتحويل في موروثنا اللغوي بتوظيف النواسخ أو بآليات أخرى متنوعة(٢٢).

وسينهض البحث بمفصلة عدد من المظاهر النحوية الفاقعة التي جعلت بنائية السورة مشعة، وألفاظها مشرقة ترف ألقاً وإيحاء، وهذه بعضها:

١. **أسلوب التنكير:** وعلمه التنوين، ومنه قوله تعالى: ﴿ويل﴾، والغرض من التنكير هو إفادة التعميم، وإطلاق الحكم، لكي يذهب ذهن المتلقي إلى آفاق بعيدة من أنواع العذاب التي تنتظره، فهو جامع كل أنواع العذاب، إلا إذا ذهبنا مع الذاهبين إلى أن ﴿ويل﴾ وادٍ في جهنم. ومثله قوله تعالى: ﴿همزة لمزة﴾ : أفادت النكرة التعميم لجميع أشكال الهمز واللمز المستنكر الذي يجسد الولع الشديد بالهمز واللمز لإلحاق الأذى والتنقص بالناس. ومنه قوله تعالى: ﴿لكل﴾ التي تفيد تعميم الحكم على كل فرد من الأفراد الذين يتعاطون النميمة، ويقترفون التفحيش على البشر. ومثله ﴿الذي﴾ وقد أفادت هنا أيضاً التعميم وصيغ الذي وفروعها صيغ عموم، مثل كل وجميع، كقوله تعالى: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ (٢٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿مالاً﴾. والذي يجسد الطمع الذي يرتكس إليه المخاطب، فجشعه الزائد جعله يتشوف إلى جمع المال، أي مال، وكل مال، وبأية وسيلة، ومن أي وجه وفي الوقت نفسه تشكل أطروحة من لدن رب العباد الذي يشير إلى تفاهة هذا الميل الذي كان هاجسه، لا يغني عنه شيئاً إن لم يثمره في وجوه الخير والفلاح، فأذن الخطاب السماوي بتحقير المال الذي يفضي إلى شقاء صاحبه، فالغرض من التنكير هو التعميم والتحقير.

ويمعن الذكر الحكيم في تحقير هذا المال بإضافته إلى صاحبه، في قوله تعالى: ﴿ماله﴾ ليدلل على أنه حابط داحض، ولم يقل مال الله على نحو قوله تعالى: ﴿نار الله الموقدة﴾، فالمال هالك لتعلقه بهالك.

٢. **أسلوب القسم:** ويبدو ذلك في مكون أسلوبي واحد وهو قوله تعالى: ﴿كلا لينبذن في الحطمة﴾، والتقدير: والله لينبذن، وهو قسم تقاضاه السياق، فلعل المتلقي كان شاكاً منكراً الأطروحة التي تلقاها من لدن الباري عز وجل، وهي أن المال لا يحمي صاحبه الجاحد من عقوبة النار، ولا يخلده في الدنيا، فجاء الأسلوب مكثفاً زاجراً مؤنباً، وجاءت الصيغة بلفظ المضارع المبني للمجهول، للدلالة على تأكيد وقوع الحدث، واستحضاره ماثلاً، ثم حذف المقسم به واكتفى بالجواب لقوة الإيحاء والإشعاع.

٣. **المنظومة الزمنية في السورة الكريمة:** تتبدى الصيغ الزمنية متماوجة بين العموم المطلق: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾، وتارة تتمحور حول الصيغ الماضوية: ﴿الذي جمع مالاً وعدّده﴾، كيما تسجل حالة راهنة مشهودة يتلبس بها المخاطب المعني، ويتموج الزمن إلى الحاضر، فيقفز بالخاطر إلى الراهن ليسجل المعيش الذي راج وحيي في دخيلة المتلقي لا يني يمارسه، وما ينفك يعاقره: ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾، ويأتي رجيع نداء السماء بنقله إلى المستقبل الممزوج بالحاضر، في وعيد عقدي حاسم: ﴿كلا لينبذن في الحطمة﴾. ويتلبس الزمن بصيغ الاستفهام والتعجب ليشكل ردعاً استثنائياً للصورة. ويعتبر الصورة مستحضرة مختزلة للزمن الاستقبالي البعيد، كيما يصير راهناً، سرمدياً أبدياً: ﴿التي تطلع على الأفئدة﴾، لتصير ناموساً سرمدياً: ﴿جزاءً وفاقاً﴾ لكل منحرف، كلما عاقر هذه المعاصي، فلا تغيب عن ذهن المتلقي سجيس الليل وأبد الدهر، فيقيم نفسه على سمت ذلك التوجيه الرباني، الذي يبلغه مراتب السعادة والصفاء مع نداء السماء.

٤. **البناء للمجهول:** يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿لينبذن﴾ وفي صيغ اسم المفعول في قوله تعالى: ﴿مؤصدة ﴾، واسم المفعول في قوله تعالى: ﴿ممددة﴾. والغرض من حذف الفاعل هو الإبهام على السامع للتشويق والتهويل، فالمخاطب مأخوذ بمن سينبذه ويلقيه في أتون النار، لا يدري مَن مِنَ الملائكة سيوصد الباب، ولا يعرف من سيمد له الأعمدة، من قبل أن المسألة منوطة برؤية غيبية على المسلم أن يهطع لها، ويستسلم بعد أن حصحص له الحق، والقصد هو الترهيب والتخويف، ليقصر عن هذا السلوك، فلا

يطاله ذلك العذاب المرعب، فحينئذ تبدو الصورة مرعبة تذهب بالذهن مذاهب شتى، فيكون له وقع تأديبي أكثر من عرض الحقائق مباشرة، وحذف المسند إليه إن كان فاعلاً من سنن العربية، وله مسوغات لفظية أو معنوية يقتضيها الموقف، وهي مبسوطة في مظانهم، شاخصة في أنظارهم، تلتمس ثم[٢٤].

٤. المحور الرابع: المحور الأسلوبي

عنينا بهذا المحور المعطيات البلاغية، التي تجعل الأسلوب شفافاً مؤتلقاً، ومن ذلك:

١. **الإيجـــاز:** الذي يجعل الكلمات مثقلة بالدلالات والإيحاءات التي تشع توجيهات مقنعة، تأخذ السامع، وتبلغ الكلام أسنى درجات الفصاحة، وتحله في أسمى مقام من الخفة والأريحية، ونلمح ذلك في قوله تعالى: ﴿ويل﴾ التي تستجمع كل ما يخطر بالبال من العذاب في الدنيا والآخرة، والويل صيغة جامعة وهي أشد مَن الويس، والويس أشد من الويح، والويح أشد من الويب، وقال الحسن: ويح كلمة رحمة، وكلها مصادر جامدة، ما صرفت العرب منها فعلاً[٢٥].

٢. ما تحمله صيغة: لينبذن من طاقات تعبيرية هائلة ففيها صورة فنية مؤصلة على الازدراء والعنف، فلا مشاحة أن المنبوذ شيء مستكره محتقر، فهي صورة مرسومة لهذا المصير المحتوم للنمام والمستهزئ بالناس، ولمن يشغل نفسه بجمع المال عن دين الله، ويقبض عليه بتقزز ثم يطرح بعيداً في قرار النار، فهي صورة مفعمة بالمهانة والمفارقة.

٣. المفارقة الأسلوبية المؤصلة على ضدية التوقع فالمخاطب المعني مغرور مستكبر يتوقع الخلود، فيعلمه الله بالنبذ في النار فيحس الاختلاج، ويستشعر الإبلاس والإنكسار، فتصير الصورة واقعة بين قطبي الواقع والتوقع، التوقع: ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾، أما الواقع فهو: ﴿كلا لينبذن في الحطمة﴾، ليرتكس كل من ينحو هذا المنحى المنحرف إلى هذا الإحباط والانكسار فيسخي بنفسه عن سلوكه، ويقصر عنه.

٤. **توظيف أسلوبي الاستفهام والتعجب:** ﴿وما أدراك ما الحطمة﴾، لتتداخل المعرفة عن الكينونة، مع التعجب والانبهار الذي يتلبس السامع.

٥. صورة الملهوف المشغول بجمع المال من أي وجه، وما يلحقه من معاناة في قنصه، وصورة عده المال في كل حين خلسة أو جهاراً، مذعوراً لئلا ينكشف أمره أو يفتضح شأنه، أو لئلا يرزأ بنقصه أو يخترم منه شيء. فهو مهموم مهجوس مأزوم بالجمع والعد والسعي إلى تنامي المال وتكثيره.

٦. صورة النار المرعبة، إذ جعلها حطمة تهشم الجسم وتحطمه، وهي أبداً موقدة لا تنطفئ لها جذوة، وهي نار الله لعظمتها، فهي نار مميزة، يقابلها فيها جملة من الصفات التي جعلتها متضرمة مرعبة، تطلع على الأفئدة لها عمد ممددة، مما يحقق درجة عالية من التخويف والرهبة لئلا تطال المعني عقوبتها بل يجب أن يشكم نفسه مهطعاً إلى نداء الحق، فلا يقارف إصراً، ولا ياتي شيئاً إداً.

وفذلكة الكلام أن الصورة استجمعت ألواناً من الصور الفنية التي جعلتها لوحة فنية معبرة تسحر الألباب، وتملك المشاعر، فلا يملك السامع إلا أن يفتح قلبه قبل أذنيه لتلقي الرسالة السماوية العابقة بالتوجيه والإصلاح، وبناء شخصية إسلامية مستقيمة على الحق، تقية من الفساد، تعمر الأرض وتبني المجتمع الصالح الراشد، فتحقق له سعادة الدارين.

الخـــلاصـــــة

١. هذه السورة مفعمة بتقنيات فنية، وقيم تعبيرية فريدة مميزة، ترتد إلى هذه البنائية الصوتية في انسجام القيم الصوتية المتجاورة، والتآلف في المنظومة الصرفية المتلاحمة الصيغ، بما يفضي إلى إيقاعات

لفظية تشكل جرساً إيقاعياً يشخص الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، ينبغي أن ينهض التحليل اللغوي المعاصر إلى تتبعه للوقوف على أبعاده، وطرائقه في استهداف شخصية المسلم.

٢. استرفد النص القرآني في هذه السورة قيماً نحوية موقعية لافتة، أعطته قوة في التماسك والتلاحم، وقدرة فائقة في الإقناع والإعجاب. وكانت الصورة الفنية المستنبتة ردءاً للقارئ على التماهي مع النص والتعاطف مع طروحاته، فجاءت معطيات السورة الصوتية والصرفية والنحوية والبلاغية في بنائية فذة، فأفرزت ناتجاً نصياً ما هو بشعر ولا بنثر، إنه القرآن الكريم القمين بالتنقير والتأمل والاستنباط.

الهوامش

(١) السيوطي،الأشباه والنظائر، ٥/١.
(٢) تفسير القرطبي، ١٨٣/٢٠، ١٨٩. ابن خالويه، اعراب ثلاثين سورة، ص١٧٩.
(٣) الرماني، النكت، ص ٨٨.
(٤) المصدر نفسه، ص ٨٨، ٨٩.
(٥) المصدر نفسه، ص٨٨، ٨٩.
(٦) عبد التواب، المدخل، ص٦٤. ظاظا، كلام العرب، ص١٨.
(٧) حسنان، مناهج البحث، ص ١٠٦، حسان، اللغة العربية، ص٥٦، الخولي، الأصوات اللغوية، ص٣٨.
(٨) السيوطي،المزهر، ١٩٧/١، قدور، اللسانيات، ص١٢٦، الخولي، مدخل، ص٣١.
(٩) الخليل، كتاب العين، ٨١/٧.
(١٠) سيبويه، الكتاب، ١٤/٤.
(١١) ابن جنّي، الخصائص، ١٤٥/٢.
(١٢) المصدر نفسه، ١٥٢/٢. الزيدي، فقه اللغة، ص١٣٩.
(١٣) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢٥٨.
(١٤) دراز، النبأ العظيم، ص١٠٦. الصالح، مباحث، ص٣٢٤، الرافعي، اعجاز القرآن، ص٢٤٣.
(١٥) قطب، التصوير الفني، ص٨٥.
(١٦) الجرجاني، الدلائل، ص٣١٤.
(١٧) المصدر نفسه، ص٣٠٠. المخزومي، في النحو العربي، ص١٤.
(١٨) ابن جنّي، الخصائص، ٣٦٠/٢.
(١٩) الثعالبي، فقه اللغة، ص٣٣٢. الصاحبي، في فقه اللغة، ص٢٤٦.
(٢٠) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٤٤.
(٢١) الكتاب، ٥٦/١. الشايب، محاضرات، ص٣٨١.
(٢٢) عمايرة، في نحو اللغة، ص١٣٤. زكريا، الألسنية التوليدية، ص٨٩. الراجحي، النحو العربي، ص١٤٩.
(٢٣) الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص١٧٩.
(٢٤) ابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة، ص١٧٨.
(٢٥) ابن جني، الخصائص، ٣٦٠/٢. عتيق، علم المعاني، ص١٣٧.

المصادر والمراجع

ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد النجار، ط٢، الهدى، بيروت.
ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويمي، ١٩٧٢، بيروت.
ابن خالويه، اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، المكتبة الثقافية، بيروت.
انيس، ابراهيم، ١٩٧١، الأصوات اللغوية، ط٤، مكتبة الانجلو المصرية.
الثعالبي، فقه اللغة، مطبعة البابي الحلبي.
الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الاعجاز، دار المعرفة، ١٩٧٨، بيروت.
حسان، تمام، مناهج البحث في اللغة، ط٢، الدار البيضاء.

حسان، تمام، اللغة العربية: معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة.
الخولي، محمد، ٢٠٠٠، مدخل الى علم اللغة، دار الفلاح.
دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت.
الراجحي، عبده، ١٩٧٩، النحو العربي والدرس الحديث.
الرافعي، مصطفى، اعجاز القرآن، المكتبة التجارية، مصر.
زكريا، ميشال، ١٩٨٢، الألسنية التوليدية التحويلية، بيروت.
الزيدي، كاصد، ١٩٨٧، فقه اللغة العربية، جامعة الموصل.
سلام، محمد زغلول، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، دار المعارف.
سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب.
السيوطي، المزهر، تحقيق محمد جاد المولى وزملائه، القاهرة.
الشنقيطي، محمد أمين، دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب.
الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين.
الطبري، تفسيره، دار المعرفة.
ظاظا، حسن، ١٩٧٨، كلام العرب، دار النهضة العربية، بيروت.
عبد التواب، رمضان، ١٩٨٠، المدخل الى علم اللغة، مكتبة الخانجي، مصر.
عتيق، عبد العزيز، ١٩٧٢، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت.
عمايرة، خليل، في نحو اللغة وتراكيبها، عالم المعرفة، جدة.
قدور، أحمد، ١٩٩٦، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق.
القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار التراث، بيروت.
قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، دار المعارف.
المخزومي، مهدي، ١٩٨٦، في النحو العربي نقد وتوجيه، الرائد العربي، بيروت.

Integrative Linguistic Study of (Surat Al-Humazah)

A. Flaih*

Abstract

This is an integrative linguistic study of (Surat Al-Humazah) in the Holy Koran which covers the phetoric areas.

The present study has shown that the study has distinguished phonetic, morphological and syntactic system embodied in the text as a medium of religious perception that targets the muslim character.

* Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Jarash Private University, Jarash, Jordan. Received on 3/4/2001 and Accepted for Publication on 12/7/2001.